# غزّة .. والتحدّي الحضاري

(الصفحات ١٨٩- ١٩٨)

لابدّ لنا ونحن نختتم هذا العدد من «ثقافتنا» أن نقف عند «غزّة» فهي قد اقترنت بجنوب لبنان من حيث تحوّلها إلى ساحة المقاومة. و«المقاومة» لها علاقة بالحياة.. والحياة مقدمة للخروج من «الظلمات» إلى «النور»، والانطلاق نحو الكمال الإنساني، وإقامة الصرح الحضاري الإنساني الإسلامي.

مقاومة «غزّة» جاءت عكس ما أرادته قوى الاستكبار العالمي بقيادة الصهيونية العالمية من خلق بؤرة (إذلال) للمسلمين، فتحولت إلى منطلق (عزّة) للأمة.

الكيان الصهيوني الغاصب زُرع في أرض فلسطين بهدف إذلال العالم الإسلامي.

والإذلال يجب فهمه على أنه إنهاء «حياة» الفرد أو المجتمع. لأنه يقضي على الطاقات الخلاّقة في الإنسان ويقضي على فطرته الإنسانية ويحوّله إلى موجود فاقد لأي مثل أعلى، وعاكف على إشباع شهواته البهيمية، لا يتجاوزها إلى ما هو أسمى منها.

اهتمام الاستكبار العالمي بإقامة الشرق الأوسط الجديد حيث تكون فيه إسرائيل قطبًا لهذه المنطقة، واهتمام الصهيونية بإقامة دولة تمتد من النيل إلى الفرات يعني فرض حالة الإذلال على العالم الإسلامي، كي يتحقق موته ويُتَّقى من استعادة عودته إلى حياته وإلى استئناف مسيرته الحضاريّة.

وحين قاومت الأمة الإسلامية هذه الأهداف الاستكبارية ويئس المخططون من تنفيذ أهدافهم في المدى القريب على الأقل راحوا يراهنون على الضعفاء والمهزومين، فكانت كمب ديفيد وأوسلو و.. وحصلوا من خلال ذلك على (تنازل) عربي بشأن عنصرية دولة إسرائيل وقدموا مقابل ذلك مشروعًا لتكريس الإذلال متمثلاً بسلطة فلسطين أريد لها أن تكون حصنًا لإسرائيل أمام المقاومة.

غير أنّ هذه الخطة فشلت حين تصاعدت الانتفاضة وروح المقاومة، وتوّجت بإقامة دولة حماس في الأرض الفلسطينية.

وحين اختُزلت هذه الحكومة في أرض غزّة توجّه الحقد الصهيوني لهذه المنطقة يحاصرها اقتصاديًا ويتآمر عليها جاسوسيًا ويقتل قادتها غيلة، ويشنّ عليها الحروب المتوالية، يقتل فيها الأطفال والنساء، ويهدم البنى التحتية والبيوت. لفرض حالة من الاستسلام على هذا الجزء النابض بالحياة في فلسطين.

وشهد العالم أخيرًا أبشع مجازر في التاريخ يرتكبها النظام المتوحش العنصري، في عملية إبادة جماعية، واستئصال عرقي، كل ذلك وسط محاصرة خانقة صهيونية وغربية وعربية.

كما شهد أروع أشكال المقاومة والصمود والصبر ورفض الخضوع والاستسلام.

والدروس الحضارية المستقاة من غزّة نلخصه فيما يلي:

١ –إن المنطق الوحيد الذي يجب أن يتعامل به المظلومون مع الظالمين هو (المقاومة) فهو الذي يستطيع أن يفرض عليهم احترام المظلوم، والتراجع أمامه.

٢- إن أي تنازل أمام العدوّ المتغطرس لا يزيده إلاّ عتوًا وغطرسة وتماديًا في غيّه ومواصلة لمشروعه العدواني.

٣- الصهيونية تستهدف إذلال البشرية، كي تتحقق مقولتها في الاستعلاء باعتبار أنها في زعمهم «شعب الله المختار»، ومن هنا فإنها أغرقت كثيرًا من زعماء

العالم بالفساد المالي والجنسي، وجعلتهم مطيّة لأطماعها، وهذه الحاضنة الغربية والأمريكية بل حتى العربية لإسرائيل هي من نتائج هذا الإذلال.

٤- عملية الإذلال الصهيوني تتركز على الفلسطينيين والعرب والمسلمين لأن العالم الإسلامي فيه من مقومات المقاومة والصمود واستعادة الدور الحضاري ما يقف أمام أطماع الصهاينة.

٥- وأهم درس في مقاومة غزّه هو قدرة الدم على الانتصار على السيف، فما حققته الحرب الأخيرة على غزّة من انتصار، يعيد إلى الأذهان قدرة المظلوم على تحقيق النصر مع قلة الناصر وقلّة الإمكانيات.

وهذا الهلع والذعر الذي أصاب الصهاينة جرّاء صواريخ المقاومة يؤكد أن الكيان الصهيوني بيت عنكبوت، وأن كل تمدّد وتغطرس في هذا الكيان خلفيته ضعف النظام السياسي العربي.

إنه هذا الانتصار يعيد إلى الأذهان ما قاله المفكرون المخلصون من أبناء هذه الأمة بشأن حتمية زوال إسرائيل. ونعيد ما ذكره واحد من هؤلاء المخلصين بشأن نهاية إسرائيل وهو المرحوم الدكتور عبدالوهاب المسيري حيث قال:

« في ١٧ أغسطس ٢٠٠٦، أي أثناء الحرب العربية الإسرائيلية السادسة، وبينما كانت الطائرات الإسرائيلية تدك المدن والقرى والبنية التحتية اللبنانية وتُسيل دم المدنيين، نشرت صحيفة معاريف مقالاً كتبه الصحفي يونتان شيم بعنوان "أُسست تل أبيب في عام ١٩٠٩ وفى عام ٢٠٠٩ ستصبح أنقاضًا ". جاء في المقال "أنه قبل مائة عام أقاموا أولى المدن العبرية، وبعد مائة عام من العزلة قضى أمرها". ما الذي يدعو مثل هذا الكاتب للحديث عن النهاية، نهاية إسرائيل، في وقت بلغت فيه القوة العسكرية الإسرائيلية ذروتها، وتجاوز الدعم الأمريكي، السياسي والمالي والعسكري، لها كل الحدود والخطوط الحمراء؟ كيف يمكن تفسير هذا الموقف؟

ابتداء لابد وأن نذكر حقيقة تاهت عن الكثيرين في العالم العربي وهو أن موضوع نهاية إسرائيل متجذر في الوجدان الصهيوني. **فحتى قبل إنشاء الدولة أدرك كثير من الصهاينة أن المشروع الصهيوني مشروع مستحيل وأن الحلم الصهيوني سيتحول إلى كابوس**. وبعد إنشاء الدولة، وبعد أن حقق المستوطنون الصهاينة "النصر" على الجيوش العربية تصاعد هاجس النهاية. ففي عام ١٩٥٤ قال موشيه ديان، وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلي، في جنازة صديق له قتله الفدائيون الفلسطينيون: "علينا أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لا يسقط السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة". النهاية، ماثلة دائما في العقول، فالضحايا الذين طردوا من ديارهم تحولوا هم وأبناؤهم إلى فدائيين يقرعون الأبواب يطالبون بالأرض التي سلبت منهم. ولذا فإن الشاعر الإسرائيلي حاييم جوري يرى أن كل إسرائيلي يُولَد "**وفي داخله السكين الذي سيذبحه**"، فهذا التراب (أي إسرائيل) لا يرتوي"،فهو يطالب دائماً "بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى". في الميلاد يوجد الموت وفى البداية توجد النهاية.

وتتناول قصة "**في مواجهة الغابة**" التي كتبها الروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشوا في النصف الأول من الستينيات الحالة النفسية لطالب إسرائيلي عُيِّن حارسًا لغابة غرسها الصندوق القومي اليهودي في موقع قرية عربية أزالها الصهاينة مع ما أزالوه من قرى ومدن. ورغم أن هذا الحارس ينشد الوحدة، إلا أنه يقابل عربيًا عجوزًا أبكم من أهل القرية يقوم هو وابنته برعاية الغابة، وتنشأ علاقة حب وكره بين العربي والإسرائيلي، فالإسرائيلي يخشى انتقام العربي الذي أصيب بعاهته أثناء عملية التنظيف العرقي التي قام بها الصهاينة عام ١٩٤٨. ولكن وعلى الرغم من هذا يجد نفسه منجذبًا إلى العجوز العربي بصورة غير عادية، بل يكتشف أنه يحاول، بلا وعي، مساعدته في إشعال النار في الغابة. وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة، يتخلص الحارس من كل مشاعره المكبوتة،

ويشعر براحة غريبة بعد احتراق الغابة، أي بعد نهاية اسرائيل!

وفى اجتماع مغلق في مركز الدراسات السياسة والاستراتيجية في الأهرام أخبرنا الجنرال الفرنسي أندريه بوفر، الذي قاد القوات الفرنسية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، بواقعة غريبة، كان هو شاهدها الوحيد. فقد ذهب لزيارة إسحق رابين في منتصف يونية ١٩٦٧ أي بعد انتهاء الحرب بعدة أيام، وبينما كانا يحلّقان في سماء سيناء والقوات الإسرائيلية المنتصرة في طريق عودتها إلى إسرائيل بعد أن أنجزت مهمتها، قام الجنرال بوفر بتهنئة رابين على نصره العسكري، ففوجئ به يقول: "ولكن ماذا سيتبقى من كل هذا؟.. **في الذروة أدرك الجنرال المنتصر حتمية الهوه والنهاية.**

إن موضوع النهاية لا يحب أحد في إسرائيل مناقشته، ولكنه مع هذا يُطل برأسه في الأزمات. ففي أثناء انتفاضة ١٩٨٧، حين بدأ الإجماع الصهيوني بخصوص الاستيطان يتساقط، حذر إسرائيل هاريل المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل (أي الانسحاب من طرف واحد). فإن هذا لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨) إذ سيكون هناك انسحاب روحى يمكن أن يتهدد وجود الدولة ذاتها (الجيروساليم بوست ٣٠ يناير١٩٨٨). وأخبر رئيس مجلس السامرة الإقليمي شارون (في مشادة كلامية معه) "**إن هذا الطريق الدبلوماسي هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل**" (هآرتس١٧يناير٢٠٠٢). ويردد المستوطنون أن الانسحاب من نابلس يعنى الانسحاب من تل أبيب.

ومع انتفاضة الأقصى تحدثت الصحف الإسرائيلية عدة مرات عن موضوع نهاية إسرائيل. فقد نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٧ يناير ٢٠٠٢) مقالا بعنوان "يشترون شققًا في الخارج تحسبًا لليوم الأسود"، اليوم الذي لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه، أي نهاية إسرائيل!. والموضوع نفسه يظهر في مقال ياعيل باز ميلماد

(معاريف ٢٧ديسمبر٢٠٠١) الذي يبدأ بالعبارة التالية: "أحاول دائمًا أن أبعد عنّي هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟ ثمة أوجه شبه كثيرة بين المجريات التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت، وبين ما يجرى في الآونة الأخيرة مع الدولة". وقد لخص جدعون عيست الموقف في عبارة درامية "ثمة ما يمكن البكاء عليه: اسرائيل"(يديعوت أحرونوت ٢٩ يناير٢٠٠٢).

بل إن مجلة نيوزويك (٢إبريل٢٠٠٢) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفى داخلها السؤال التالي: "**مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟**". وقد زادت المجلة الأمور إيضاحًا حين قالت: "هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟". ولكن ما يهمنا في هذا السياق ما قاله الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون: الذى أكد أنه في حالة يأس لأنه يخشى أن يكون الأمر قد فات". ثم أضاف "لقد قلت لكم مجرد نصف ما أخشاه" (النصف الثاني أن الوقت قد فات بالفعل). ويتكرر الحديث عن نهاية إسرائيل في مقال إيتان هابر بعنوان "ليلة سعيدة أيها اليأس.. والكآبة تكتنف إسرائيل" (يديعوت أحرونوت ١١نوفمبر٢٠٠١). يشير الكاتب إلى أن الجيش الأمريكى كان مسلحًا بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة في سايجون، محاولة إنقاذ الأمريكيين وعملائهم المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت. إن الطائرة المروحية هي رمز الهزيمة والاستسلام والهروب الجبان في الوقت المناسب. ثم يستمر الكاتب نفسه في تفصيل الموقف: "**إن جيش الحفاة في فيتنام الشمالية قد هزم المسلحين بأحدث الوسائل القتالية. ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم إلى الانتصار. الروح تعنى المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيار آخر. وهو ما تفتقده إسرائيل التي يكتنفها اليأس.**"

أما أبراهام بورج فيقول في مقال له (يديعوت أحرونوت، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣) إن "نهاية المشروع الصهيوني على عتبات أبوابنا. وهناك فرصة حقيقية لأن يكون جيلنا آخر جيل صهيوني. قد تظل هناك دولة يهودية، ولكنها ستكون شيئا مختلفًا، غريبة وقبيحة... فدولة تفتقد للعدالة لا يمكن أن يُكتب لها البقاء... إن بنية الصهيونية التحتية آخذة في التداعي... تمامًا مثل دار مناسبات رخيصة في القدس، حيث يستمر بعض المجانين في الرقص في الطابق العلوي بينما تتهاوى الأعمدة في الطابق الأرضي". ثم، أطل الموضوع برأسه مجددًا في مقال ليرون لندن (يديعوت أحرونوت ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٣) بعنوان: "عقارب الساعة تقترب من الصفر لدولة إسرائيل"، وجاء فيه "في مؤتمر المناعة الاجتماعية الذي عُقد هذا الأسبوع، عُلم أن معدلاً كبيرًا جدًا من الإسرائيليين يشكون فيما إذا كانت الدولة ستبقى بعد ٣٠ سنة. وهذه المعطيات المقلقة تدل على أن عقارب الساعة تقترب من الساعة ١٢، (أي لحظة النهاية) وهذا هو السبب في كثرة الخطط السياسية التي تولد خارج الرحم العاقر للسلطة". وحينما أصدرت محكمة العدل الدولية حكمها بخصوص الجدار العازل وعدم شرعيته بدأ الحديث على الفور عن أن هذه هي بداية النهاية.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هاجس النهاية الذي يطارد الإسرائيليين؟ سنجد أن الأسباب كثيرة، ولكن أهمها إدراك المستوطنين الصهاينة أن ثمة قانونًا يسري على كل الجيوب الاستيطانية، وهو أن الجيوب التي أبادت السكان الأصليين (مثل أمريكا الشمالية واستراليا) كُتب لها البقاء، أما تلك التي أخفقت في إبادة السكان الأصليين (مثل ممالك الفرنجة التي يقال لها الصليبية والجزائر وجنوب أفريقيا) فكان مصيرها الزوال. ويدرك المستوطنون الصهاينة جيدًا أن جيبهم الاستيطاني ينتمي لهذا النمط الثاني وأنه لا يشكل أي استثناء لهذا القانون. إن الصهاينة يدركون أنهم يعيشون في نفس الأرض التي أقيمت فيها ممالك الفرنجة

وتحيط بهم خرائب قلاع الفرنجة. التي تذكرهم بهذه التجربة الاستيطانية التي أخفقت وزالت. ومما يعمق من هاجس النهاية أن الوجدان الغربي والصهيوني يوحد من البداية بين المشروع الصليبي والمشروع الصهيوني ويقرن بينهما، فلويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، صرح أن الجنرال اللنبي الذي قاد القوات الإنجليزية التي احتلت فلسطين شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصارًا. ويمكننا أن نقول إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية.

لكل هذا يدرس العلماء الإسرائيليون المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي، والعلاقة بين هذا الكيان والوطن الأصلي المساند له. وقد وجَّه كثير من الباحثين الصهاينة اهتمامهم لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة التي واجهها الكيان الفرنجي ومحاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت به.

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل إسحق رابين وموشيه ديان يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة. ففي سبتمبر ١٩٧٠، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصَّل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها.

ويوري أفنيري، الكاتب الصحفي الإسرائيلي، وعضو الكنيست السابق، كان من المستوطنين الصهاينة الذين أدركوا منذ البداية استحالة تحقيق المشروع أو الحلم الصهيوني. ولذا كان ينشر منذ الخمسينات مجلة هاعولام هزه (هذا العالم) والتي تخصصت في توجيه النقد للسياسات الصهيونية. وكان أفنيري يحذر

الصهاينة من مصير ممالك الفرنجة التي لم يبق منها سوى بعض الخرائب. وقد صدر له كتاب بعنوان *إسرائيل بدون صهيونية* (١٩٦٨) عقد فيه مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكريًا لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين. ثم عاد أفنيري إلى الموضوع، عام ١٩٨٣، بعد الغزو الصهيوني للبنان، في مقال نشر في هاعولام هزه بعنوان "ماذا ستكون النهاية"، فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة. وحينما كان جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، الأمر الذي يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني. كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين. ثم بدأ الإرهاق يحل بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف المسيحية الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أضعف مجتمع الفرنجة الاستيطاني، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من الغرب. وفي الوقت نفسه، بدأ بعث إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاز على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقًا تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة. وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس. وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، ولذا لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم ونهايتهم ونهاية الممالك الصليبية!

لكل هذا عاد هاجس النهاية مرة أخرى بعد الحرب السادسة وبعد الصمود اللبناني العظيم في وجه الهمجية الإسرائيلية، وبعد إبداع المقاومة اللبنانية. فقد

اكتشف الصهاينة حدود القوة ووصلوا إلى مشارف النهاية، وكما قال المثقف الإسرائيلي شلومو رايخ: "إن إسرائيل تركض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى نهايتها المحتومة". فالانتصارات العسكرية لم تحقق شيئاً، لأن المقاومة مستمرة مما يؤدى إلى ما سماه المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تألمون (نقلاً عن هيجل) **عقم الانتصار**... انتهى ما قاله الدكتور المسيري ولله عاقبة الأمور.